

يسترد الشرق جلاله ورفعته، حتى يعلم الغرب أنا كأمة اليابان لا نرتضى الذلة والهوان.

وعلى نحو ماشد حافظ إلى قينارته أوتاراً شرقية وعربية ووطنية شدّ وترًا إسلامياً بديعاً، وهو يتجلّى في مدائحه لعبد الحميد سلطان الدولة العثمانية وخليفة المسلمين، كما يتجلّى في مديحه لخلفه السلطان محمد رشاد الخامس حتى ليؤمل استيحاءً من لقبه أن يعيد إلى العالم العربي عهد الرشيد.

وكان لا يزال يعدّ الترك - كما أسلفنا - جزءاً من الشرق، وكانوا لا يزالون يمدّون سلطانهم على العراق والشام وبلاد المغرب، ويؤمل دائماً أن تعود قوتهم حتى يستعيد الشرق والإسلام مجدهما، وحتى يذلّ الغرب صاغراً. وأقوى من هذا النغم الذي كان يوقعه على قينارته أو على هذا الوتر الإسلامي أشعاره في المصلح العظيم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وكان قد اتصل به، وهو في حملة كشنر بالسودان ولما عاد قرّبه منه وفسح له في مجالسه وجعله من خاصته. وكان لذلك أثر عميق في نفس حافظ، فأخذ يشيد بالشيخ وبدعوته الإصلاحية وكل ما اتصل بها من فتح باب الاجتهاد في الدين وتخليصه مما علق به من الأوهام والخرافات على نحو ما يلقانا في فائية له، إذ يهيب به فيها أن يقضى على البدع المستحدثة، ويشيد بفتاويه الصائبة، وله يقول في قصيدة ثانية:

يا أميناً على الحقيقة والإفّ تاءٍ والشّرْع والهدى والكتاب  
أنت نعم الإمام في موطن السراءِ ي ونعم الإمام في المحرابِ

ويصبّ حافظ في القصيدة سياط غضبه على خصوم الإمام من الشيوخ وغيرهم، مدافعاً عنه دفاعاً حاراً. وما يلبث الإمام أن يلبي داعي ربه، فيرثيه حافظ رثاءً يضطرم بنار موقدة من اللوعة والأسى واللهفة والحسرة مستهلاً له بهذين البيتين المتناعين:

سلامٌ على الإسلام بعد محمدٍ سلامٌ على أيامه النضراتِ